الفصل الخامس

الأدعية الصادرة عن ذات رسول الله ﷺ

اشتمل هذا القسم على ثلاثة أدعية لرسول الله ﷺ.

المبحث الأول

الدعاء الأول

﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنبياء: ١١٢]

هذه آخر آية من سورة الأنبياء، والسورة مكية.

صلة الآية بما قبلها:

هذه الآية تقع بين الآيات التى تحدثت عن الرسالة والتوحيد والإيذان بالعذاب فى الدنيا والتى أولها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٨].

وبين ما ينتظره العالم فى نهاية مطافه من زلزلة شديدة تضع بسببها كل ذات حمل حملها، ويكون الناس سُكارى وما هم فى الحقيقة كذلك ولكن عذاب الله شديد وذلك هو المشار إليه فى أول سورة الحج..

ففى وسط هذه المعانى الزاخرة بها تلكم الآيات سالفة الذكر ينبرى رسول الله ﷺ مستنجدا بربه ليضع له حدا فاصلا لباطلهم ونهاية لطغيانهم فيقول:

﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنبياء: ١١٢].

فيصدر تضرُّعه بلفظ الربوبية الدال على كمال العبودية والمطمئن على عظم الرحمة الإلهية.

وهنا يلوح لنا سؤال هو:

كيف ساغ لرسول الله محمد أن يقول لربه «احكم بالحق» وهو يعلم أن حكم الله حق لا مراء فيه.. كما أنه كيف ساغ أيضا أن يكون هذا الدعاء مشتركا بين الأنبياء ووارداً على ألسنتهم، ومما يدل على نطق الرسل به ما قاله الجمل فى تفسيره من أن سعيد بن جبير روى عن قتادة أنه قال كانت الأنبياء تقول: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩].

وحاشا للرسل وإمامهم المصطفى أن يكونوا شاكين فى حكم الله تعالى حتى يطلبوا منه تعالى أن يحكم بالحق - يؤيد هذا قول أبى عبيدة رضى الله عنه «أن الصفة هنا أقيمت مقام الموصوف»..

وعليه يكون التقدير «رب احكم بحكمك الحق» أى الموصوف بالحق والعدل دائما أبداً.. ولهذا كان الرسول ﷺ يردد هذه الآية عند لقاء الأعداء وهو يعلم علم اليقين أنه على الحق وأن عدوّه على الباطل وأن حكم الله تعالى هو الحق بعينه والعدل بذاته..

هل هذا الدعاء مما أمر الله نبيّه ﷺ

وصيغة هذا الدعاء خبرية ولكن مارواه الجمل فى تفسيره من أن سعيد بن جبير روى عن قتاده أنه قال كانت الأنبياء تقول: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ يفيد بأن هذا الدعاء قد أمرت الرسل بترديده قبل المصطفى..

وهذا الأمر إما أنه جاء على صورة الوحى المنامى أو اليقظى فإذا كان الثانى كانت الآية خبرية لفظا إنشائية معنى، وقصد بهذا العدول تأكيد المعنى وتثبيته وذلك كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] وبناء على ذلك يكون المولى جل شأنه قد علّم نبيه أن يقول عند لقاء الأعداء وعند اشتداد الأزمات وبينه وبين قومه ﴿رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢].

وعلّمه أيضا أن يقول مثنيا على الله ومهددا للكفار قائلا: ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنبياء: ١١٢] من الشرك والكذب.. وفى هذه

العبارة ما يفيد طلب القوة والمدد الإلهى والعون الربانى لأنه تعالى خير مستعان على النصرة، خصوصا كفار مكة الذين كذبوا حين قالوا: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨] . . وكذبوا على عقولهم ومجتمعهم حين قالوا عن الرسول انه ساحر وافتروا على القرآن حين وصفوه بأنه شعر وأساطير الأولين . .

كما أنهم ظنوا أن الإسلام ستخفق رايته وأن الشوكة ستكون لهم والدولة وأن ما توعدهم الله به فى قرآنه على لسان رسوله محمد لو كان حقا لنزل بساحتهم . .

وكأنى بهذه الآية يشير لسان حالها إلى أن الرسول يقول لربه يارب لاتحابهم، بل شدّد وطأتك عليهم فهذا جزاؤهم . .

ولقد استجاب الله دعاءه وحكم بينه وبينهم بالحق فخيّب آمالهم وشتت شملهم وهزمهم شر هزيمة فى غزوتى بدر والأحزاب وغيرها . .

المبحث الثانى

الدعاء الثانى

وهو دعاء تعريضى ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾[الفرقان: ٣٠].

لقد أوذى رسول الله ﷺ فى ذاته ورسالته وفى أهله وصحبه والمؤمنين به فتجمّل بالصبر على ما أصابه من هؤلاء الجفاء الغلاظ الذين لم تعرف الرحمة إلى قلوب الكثير منهم طريقا . .

لقد تحلى بما يجب أن يتحلى به صاحب دعوة أو رسالة بل كان إمام الدُّعاة جميعا وقدوتهم التى أضحت خير ما يؤتسى بها ويحتذى، وكان كلما وافاه جبريل وأخبره بأن تعذيبهم منوط بأمره وإشارته كان يدعو الله قائلا «اللهم اهد قومى فإنهم لايعلمون» . .

ولقد كان جام غضبهم وعظيم سخطهم على القرآن الكريم الذى لم يستطيعوا محاكاته ولو فى أقصر سوره. لقد زعموه سحرا وشعرا وأساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا..

ولما لم يصلوا إلى هدفهم فيه أعرضوا عنه وهجروه وكان هذا من أعظم ما آلم النبى ﷺ.. لذلك بث شكواه إلى ربه ورفع آلامه إلى مرسله من جراء جرأتهم هذه وتجاسرهم على ذلك فقال: ﴿ **يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا** ﴾[الفرقان: ٣٠].

وسبقت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا** ﴾[الفرقان: ٢١].

لقد طلب مشركو مكة من الرسول ﷺ أن ينزل عليهم ملائكة، أو يريهم ربهم لقد طلبوا ذلك عتوا وتعنتا وبعدا فى تكذيب الرسول فى رسالته، ولما كان أقوى الأدلة وأنصعها وأدومها على مر السنين والأعوام على صدقه فى دعواه الرسالة «هو القرآن الكريم» تركوه وهجروه وأعرضوا عنه غير مؤمنين به ولا معترفين بفضله ولا مستمعين إليه استماع تفهم وتدبر واتعاظ..

وهذه الآية وإن كان ظاهرها الخبر إلا أن حقيقتها الطلب والدعاء على قريش لأن بث شكوى الرسل والأنبياء إلى الله، ما هو إلا التجاء إليه تعالى وطلب النصرة منه على أقوامهم بتعذيبهم..

وكأن الرسول يقول يارب عاقب هؤلاء المشركين لهجرهم كتابك الكريم ولعل العدول عن صيغة الإنشاء إلى صيغة الخبر.. وكذلك العدول عن التصريح بالدعاء إلى بث الشكوى.. للإشعار بأن الرسول محمدا ليس على قومه وإن حدث منه ذلك فهو على سبيل الندرة يؤيد هذا قول الله تعالى: ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾[التوبة: ١٢٨].

ومن عجب أنك ترى أن بعض المفسرين يذهبون إلى القول أن مقالة الرسول هذه إنما ستكون فى الآخرة وليس ذلك بمستساغ، «لأن هجر مشركى مكة للقرآن وبث الشكوى وطلب النجدة من الله تعالى إنما مجاله الدنيا لا الآخرة، يدل على هذا الآيات الواقعة بين قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ [الفرقان: ٢١] وبين قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان: ٣٠] كما يدعم هذا أيضا ما قاله أبو السعود فى تفسيره من أن إيراد الرسول ﷺ بعنوان الرسالة لتحقيق الحق. ومن لطائف هذه الآية الكريمة أنها تنبيه للمؤمنين بأن يتعهدوا القرآن الكريم كثيراً حتى لايندرجوا تحت هذه الآية، وحتى لايكونوا مع الذين هجروا القرآن ولم يعلموا بأحكامه ولقد روى الجمل فى تفسيره أن رسول الله ﷺ قال : «من تعلّم القرآن وعلق مصحفه ولم يتعاهده ولم ينظر فيه يوم القيامة جاء متعلقاً به يقول يا رب عبدك هذا اتخذنى مهجوراً اقض بينى وبينه».

المبحث الثالث

الدعاء الثالث

﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾[الزخرف: ٨٨، ٨٩].

هذه آخر آية من سورة الزخرف، والسورة مكية، أى وقول محمد ﷺ فى شكواه إلى ربه من قومه الذين كذبوه: فقال يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون كما أخبر تعالى فى الآية الأخرى ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً ﴿٣٠﴾﴾ وهذا الذى قلناه هو قول ابن مسعود رضى الله عنه ومجاهد وعليه فسَّر ابن جرير، قال البخارى وقرأ عبد الله يعنى ابن مسعود رضى الله عنه «وقال الرسول يارب» وقال مجاهد فى قوله ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الزخرف: ٨٨] قال يؤثر الله عز وجل قول محمد ﷺ، وقال

قتاده: هو قول نبيكم ﷺ يشكو قومه إلى ربه عز وجل ثم حكى ابن جرير فى قوله تعالى : ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ﴾ قراءتين إحدهما النصب ولها توجيهان: أحدهما أنه معطوف على قوله تبارك وتعالى : ﴿نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ [الزخرف: ٨٠] والثانى أن يقدر فعل وقال قيله.

والثانية: الخفض وقيله عطفا على قوله ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٨٥] تقديره وعلم قيله. وقوله تعالى : ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٨٩] أى المشركين ﴿وَقُلْ سَلَامٌ﴾ أى لاتجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيىء، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلا وقولا ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٩] هذا تهديد من الله تعالى لهم ولهذا أحل بهم بأسه الذى لايُردّ وأعلى دينه وكلمته وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا وانتشر الإسلام فى المشارق والمغارب والله أعلم.

obeikandl.com

من هذه الآيات هو قوله الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾[النساء: ١٠٦].

أسباب النزول :

روى أن رجلا من الأنصار يُقال له «طعمه بن أبيرق» من بنى ظفر، سرق درعا من جاره قتاده بن النعمان فى جراب دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه، فخبأها عند «زيد بن السمين» اليهودى، فالتُمست الدرع عند طعمة فلم توجد وحلف ما أخذها وماله بها علم فتركوه، واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودى فأخذوها فقال: دفعها إلىّ طُعْمة وشهد له ناس من اليهود، فقالت بنو ظفر: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وشهدوا ببراءته وسرقة اليهودى، فهمّ رسول الله ﷺ أن يفعل فنزلت الآية ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ... ﴾، وهرب طعمة إلى مكة وارتدّ، ونقب حائطا بمكة ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله(١).

التفسير:

نزلت الآيات المبتدأة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ والمختتمة بقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ ﴾ فأبانت عظمة القرآن، وأمرت النبى ﷺ أن يحكم بين الناس بما أعلمه الله وأوحى به إليه، وأن يستغفر الله مماهمّ به من الدفاع عن طُعْمة اطمئنانا لشهادة قومه بصلاحه ﴿ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴿١٠٦﴾ ﴾ [النساء: ١٠٦] أى مبالغا فى المغفرة والرحمة لمن يستغفره، وأن يتذكر نعم الله وفضله عليه بالنبوّة، ورحمته بالعصمة، ولولا ذلك لهمّت جماعة منهم أن يضلوه عن الحق، وذلك حين سألوا الرسول ﷺ أن يبرىء صاحبهم «طعمة» من التهمة ويلحقها باليهودى، فتفضّل الله عز وجل على رسوله بأن أطلعه على الحقيقة، وعلّمه مالم يكن يعلم وكان فضل الله عليه عظيما.

كما أبانت الآيات أن الله محيط بكل ما يصدر عن الذين يستخفون من الناس دونه، وأن المجرمين الذين يجدون من يدافع عنهم فى الدنيا لايتيسر لهم

---

(١) أبو السعود : ١/ ٣٨٠

ذلك فى الآخرة، وأن الذين يجادلون الله ورسوله سيصلون جهنم التى هى مصيرهم وأن باب التوبة مفتوح لمن ظلم نفسه، وأن من ارتكب إثما أو رمى به بريئاً فإن نتيجة ذلك راجع إليه، وأن مجامع الخير فى الأمر بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس، ولاخير فيما يتناجى به الخلق سوى هذه الثلاثة.

وأمر اللَّه تعالى لرسوله ﷺ بالاستغفار لنفسه إنما هو لترك الأولى والأفضل، وهو كما قيل حسنات الأبرار سيئات المقربين، فهو صلوات الله وسلامه عليه وإن كان قد شهدت النصوص بوقوع ذنب منه فلم يخل ذلك بمنصبه ولا قدح فى مرتبته، بل قد تداركه ربه بعفوه فزال به تقصيره، ثم اجتباه وهداه، ومدحه وزكّاه، واختاره واصطفاه ﷺ.

المبحث الثانى
الاستغفار الثانى

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾[غافر: ٥٥].

بعد أن بيّن الله فى الآيات السابقة أنه ينصر رسله والمؤمنين بهم، وضرب المثال فى ذلك بحال موسى، خاطب بعده رسوله بقوله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ والمراد أن الله ناصرك كما نصرهم، ومنجز وعده لك كما أنجزه فى حقهم(٢) ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ أى واطلب المغفرة من ربك على ما فرط منك فى ترك الأولى والأفضل، قال الصاوى: والمقصود من هذا الأمر تعليم الأمة ذلك، وإلا فرسول الله ﷺ معصوم من الذنوب جميعا، صغائر وكبائر، قبل النبوة وبعدها على التحقيق(٣) وقال ابن كثير: وهذا تهييج للأمة على الاستغفار(٣).

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ أى ودُم على تسبيح ربك فى المساء والصباح. قال الرازى: والمراد منه الأمر بالمواظبة على ذكر الله، وألا يفتر اللسان عنه، حتى يصبح فى زمرة الملائكة الأبرار والمشار إليه فى قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

---

(١) التفسير الكبير: ٢٧/ ٧٧.
(٢) حاشية الصاوى: ٤/ ١١.
(٣) مختصر ابن كثير: ٣/ ٢٤٨.

المبحث الثالث

الاستغفار الثالث

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾[النصر: ١-٣] .

التفسير:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ يذكّره ربه بالنعمة والفضل عليه وعلى سائر المؤمنين، والمعنى: تذكر يا محمد إذا جاءك النصر من عند الله على أعدائك، وفتح مكة أم القرى، وقال المفسّرون: الإخبار بفتح مكة قبل وقوعه إخبار بالغيب، فهو من أظهر الدلائل على صدق نبوته عليه أفضل الصلاة والسلام، وبهذا الفتح المبين دخل الناس فى دين الله، وارتفعت راية الإسلام، واضمحلت ملة الأصنام، وتقلمت أظافر الشرك والضلال، وانتشر الإسلام فى الجزيرة العربية ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ أى ورأيت العرب يدخلون فى الإسلام جماعات من غير حرب ولا قتال، وذلك بعد فتح مكة، فصارت العرب تأتى من أقطار الأرض طائعة، قال ابن كثير: إن أحياء العرب كانت قبل فتح مكة، يقولون: إن ظهر على قومه فهو نبى، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا فى دين الله أفواجا فلم تمض سنتان حتى استوثقت جزيرة العرب إيمانا، ولم يبق فى سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام[1] ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أى فسبحّ ربك وعظّمه ملتبسا بحمده على هذه النعم، واشكره على ما أولاك من النصر على الأعداء، وفتح البلاد، وإسلام العباد ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ أى واطلب منه المغفرة لك ولأُمتك.

---

(١) مختصر ابن كثير : ٣/ ٦٨٧. وقال القرطبى : و«إذا» بمعنى قد: أى قد جاء نصر الله ، لأن نزولها بعد الفتح.

وللمفسّرين فى ذلك أقوال:

* إما أن يكون استغفار الرسول هذا جار مجرى التسبيح.

* وإما أن يكون الله تعالى تعبّد نبيّه ﷺ ليقتدى به غيره حيث لايخلو مكلّف من التقصير.

* وإما أن يكون استغفار النبى ﷺ عن تركه الأولى والأفضل فى بعض الأحيان وهو كما سبق أن قلنا حسنات الأبرار سيئات المقربين.

* وإما أن يكون استغفار النبى ﷺ عن شكره لربه حيث يرى نفسه مقصّرا فى مقابل نعم الله تعالى عليه.

* مراتب السير إلى الله تعالى غير متناهية، فاستغفاره ﷺ إنما أُريد به محض التعبد، وقد ذهب بعض المفسّرين إلى أن فى المقام حذفا، والتقدير «استغفر الله لأمتك».

﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ إنه جل وعلا كثير التوبة، عظيم الرحمة لعباده المؤمنين.

البلاغة:

تضمنت السورة الكريمة وجوها من البديع والبيان نوجزها فيما يلى:

١- ذكر الخاص بعد العام ﴿نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ نصر الله يشمل جميع الفتوحات معطوف عليه (فتح مكة) تعظيما لشأن هذا الفتح واعتناءً بأمره.

٢- إطلاق العموم وإرادة الخصوص ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ﴾ لفظ الناس عام والمراد به العرب.

٣- دين الله هو الإسلام ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ وأضافه إليه تشريفا وتعظيما، كبيت الله ، وناقة الله.

٤- عِلَّة تأخير الاستغفار:

الاستغفار هو توبة إلى الله رجاء محو الذنب، وكان الأولى أن يُذكر أولا

ثم يليه الحمد وهو الشكر على قبول التوبة والعفو عن الذنب، ثم يليه التسبيح وهو التنزيه المثبت للوحدانية الكاملة فى كل شىء، فلماذا عدلت الآية عن هذا إلى ذكر التسبيح ثم الحمد ثم الاستغفار. .

يمكن الإجابة عن ذلك بما يلى:

* بدأت الآية بالأشرف فالأشرف نزولا.

* إذا اعتبر العبد أن تسبيحه وتحميده مقابلان لجلال الله تعالى وعزّته صار ذلك عين الذنب فوجب الاستغفار منه.

* قدّم التسبيح والحمد لأنهما يشيران إلى عظمة الله وقدسيته، وأخّر الاستغفار لأن فيه الإشارة إلى شفقة الله على خلقه، وكأن الله تعالى يقول لنبيه ﷺ: يا محمد سبِّح بحمدى واستغفرنى واعتقد أنهما صادران منك بتوفيقى لك وإحسانى عليك، فلا تكن كالملائكة القائلين: نحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك ظنا منهم أنهم رأوا ذلك من أنفسهم.

وكأن الآية تعنى أيضا: يا محمد إذا خطر ببالك لم سلّط الله عليك الكفار، ولم أخر عنك النصر مع أنك على الحق، إذا خطر بك هذا الخاطر فأسرع إلى التسبيح والتنزيه، وقل يا إلهى إنك منزه عن أن يستحق أحد عليك شيئا، واستغفر أيضا يا محمد لمن دخلوا فى دين الله أفواجا كالملائكة الذين يستغفرون للذين آمنوا قائلين ﴿**رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾**﴾ [غافر: ٧] أما نوعية الأمر فى التسبيح والحمد والاستغفار، فقد اختلف العلماء فيه: والفقهاء يقولون كعادتهم أن الأمر المطلق يفيد الوجوب كما هو هنا، وغيرهم يقولون إن الأمر المطلق يفيد الندب، غير أن الأمر هنا للوجوب بقرينة العطف لأن الاستغفار واجب.

٥- صيغة المبالغة ﴿**إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا**﴾ لأن صيغة «فعال» للمبالغة.

تنبيه: هذه السورة الكريمة فيها نعى النبى ﷺ ولهذا تسمى سورة «التوديع» وحين نزلت قال رسول الله ﷺ لعائشة : ما أراه إلا حضور أجلى، وقال ابن عمر: نزلت هذه السورة بمنى فى حجة الوداع، ثم نزلت ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة : ٣] الآية فعاش بعدهما النبى ﷺ ثمانين يوما(١) وروى الإمام البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد فى نفسه، فقال: لم تُدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه من علمتم !! فدعانى ذات يوم فأدخلنى معهم- قال فما رأيت أنه دعانى إلا ليريهم - فقال عمر : ماتقولون فى قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فقال بعضهم: أمرنا بأن نحمد الله ونستغفره إذ نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئا، فقال لى: أكذا تقول يا ابن عباس؟ قلت: لا، قال : فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه إياه فقال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ فقال عمر: والله ما أعلم منها إلا ما تقول»(٢).

---

(١) القرطبى : ٢/ ٢٣٣.

(٢) جمع الفوائد وأعذب الموارد: ٢/ ٢٨٥